بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

ما السر الذي يجعل الإنسان يتجاوز حدود الإنسان العادي ؟ ما السبب الذي يحفزه على أن يكون رد فعله غير ردود الفعل النفسية والمنطقة ؟

قال علي رضي الله عنه لما حمل باب خيبر الذي يعجز عن حمله أولو العزم من الرجال : والله ما حملته بقوة بدنية . وعني علي رضي الله عنه أنه لو لم يمدد بسبب من السماء ما استطاع أن ينجز هذا العمل . وقال الجندي الذي أتى بتاج كسرى وصولجانه بيت مال المسلمين بعد أن ظفر بهما في المعركة : أما والله لولا الله ما أتيتكم بهما . فالله وحده هو الذي جعل الجندي يسلم الكنز الذي حصل عليه ابتغاء رضوانه والظفر بجنة النعيم . ولما نام علي في فراش النبي ليلة همَّ المشركون بمداهمة بيت النبي وقتله في فراشه ، نام وقد افتدى النبي بنفسه ومتوكلاً على الله ، وما كان لعاقل في الدنيا أن يفعل ما فعله علي من أجل نجاة رسول الله ﷺ .

ولو أردت أن أستعرض ما في صفحات التاريخ من أمثلة لإناس تجاوزوا حدود الإنسانية في الشجاعة أو الكرم أو الصبر أو التوكل إلى ما هنالك من صفات لما كفتني من أجل تحقيق ذلك المجلدات .

وفي عصرنا الحالي ، هذا العصر المغرق في الواقعية والمادية ظهرت بدعة غايتها الطعن في التاريخ والتشكيك في ما جاء فيه . لقد وصف الطاعنون المؤرخين بالتعصب والشطط والمغالات سعياً وراء تحقيق أرب . ولقد أثّرت فيّ

هذه الظاهرة إلى حد أنني شككت فعلاً في ما ورد في كتب التاريخ من تاريخ ، ودعم هذا الضعف لدي الواقع الذي عشته وما أزال أعيشه . . واقع أكد ويؤكد كل يوم أن (السوبرمان) إنسان خيالي . وأن ليس في الواقع إلا الإنسان الذي يصوغه الواقع ، وأن التاريخ وما ورد عنه في واد وأن الواقع وما أظهر ويظهر في واد آخر .

أثرّ في هذا إلى حد الزلزلة كما قلت . . إلى أن وقع حدث في حيِّنا أراني أنموذجاً من الناس جعلني أعيد النظر في حساباتي وأن أتساءل من جديد عما إذا كان (السوبرمان) موجوداً بالفعل وأنه قد استطاع أن يثبت تفوقه على الناس في هذا العصر الآلي الذي حوّل الناس إلى قطع آجر كالآجر الذي تنتجه المصانع .

هذا (السوبرمان) لم يكن مثالاً للشجاعة أو الكرم أو الوطنية أو أو . . لقد تجاوز الرجل حدود الإنسانية في موقف يعيشه كل الناس ، هذا الموقف هو الموت . أو على الوجه الأدق الفجيعة بعزيز .

(سوبرماني) شيخ في حوالي العقد السادس من العمر ، كنت أراه ذاهباً إلى الجامع أو آيباً منه متوكئاً على عصا وهو يرفع رجله اليسرى المشلولة ويضعها على الأرض كما لو كانت خرقة ملفوفة .

أما الحدث فهو أن الشيخ كان له ولد وحيد بلغ الصف النهائي في الجامعة وقدّم امتحان التخرج . وفي اليوم الذي أعلنت فيه نتائج امتحانات الكلية ، وكان اسم ابن الشيخ في رأس القائمة ، في صباح هذا اليوم توفي الشاب بالسكتة القلبية عن عمر يناهز الثالثة والعشرين .

الحدث جليل ولا شك ، والوالد الذي هو على وشك أن يبرح الدنيا يعيش ليشهد هذه الفاجعة التي تقصم الظهر وتمزق القلب .

وما حدث للشيخ قد يحدث لكثير من الآباء الذين شيعوا أبناء شباباً إلى مثواهم الأخير . . ولكن الشيء غير العادي الذي هز قلوب أبناء الحي كلهم هو رد الفعل الذي صدر عن الشيخ بعد أن توفي ولده .

ترى كيف يكون حال أب فقد وحيده ؟

طبعاً الناس أجناس كما يقول المثل . والآباء ليسوا على درجة واحدة من العاطفة والحنان . وأنا شخصياً من النوع من الآباء الذي إن مات ولده مات هو بعده حزناً عليه . إن وجودي رهن بوجود ولدي وحياته أمل حياتي . والإنسان في تعريفي حيوان ذو أمل . والولد الوحيد أمل أبيه ، يرى فيه كما قلت امتداداً لوجوده ، وهو على الحقيقة من صنعه وصياغته . فالأب المثالي ينشىء ولده على مثاله ، هذا إذا وفقه الله إلى تحقيق ذلك . وهرم الحياة الذي يهبط الأب على جانب منه بعد أن بلغ ذروته من العمر هو الهرم نفسه الذي يرقى الولد جانبه الآخر . ولهذا قال النبي ﷺ : الولد سر أبيه . فإذا كانت العلاقة بين الأب والابن بهذه القوة وإلى هذا المدى من المتانة فما يكون رد فعل الأب حين يفجع بولده . . بوحيده ؟ كيف يمكنه أن يتقبل مصيبة كهذه ويصبر عليها ؟ ولقد قرأت مرة بيتين من الشعر لشاعر يقول :

يمثل ذو العقل في نفسه ... مصائبه قبل أن تنزلاً
فإن نزلت بفتية لم ترعه ... لما كان في نفسه مثّلا

وكثيراً ما كنت أمثل في نفسي ما قاله الشاعر فلا أجدني إلا متسائلاً في النهاية : مشكلة من يفجع بوحيده هي حاجته إلى قناعة تعينه على تحمل محنته وتجاوزها ، ولكن من أين تأتي هذه القناعة ؟ وكثيراً ما أسائل نفسي وأنا أتمثل هذه الفواجع : لم أستمر في العيش بعد أن فقدت ـ لا قدر الله ـ ولدي ، وما حاجتي إلى الحياة بعد أن انطفأ نور أملي الوحيد ؟ ولقد قيل : المصيبة ، إن صبرت ، واحدة ، وإن لم تصبر فاثنتان . ومعنى هذا أن من لا يصبر على المصيبة جعلها اثنتين وذلك باستسلامه هو إليها وانهياره بدوره بعدها . ومع هذا فأنا أجد أن الحياة أسخف من أن تعاش دون أمل ، وأن حياة بلا أمل كحياة سجين محكوم بالسجن مدى الحياة . وأية قيمة لحياة سجين سيقضي عمره وراء أسوار السجن بلا جدوى ولا معنى لحياته ولا غاية سوى تعذيبه . . إن حياته بالمقارنة تفضلها حياة حمار مشدود إلى رحى طاحونة أو عجلة بئر يقضي عمره في الدوران حولها ولكنه يساعد على طحن حب أو على استخراج ماء مثلاً .

باختصار أن ما كنت لأتحمل مصيبة موت ولدي . أقول هـذا على الـرغم من أنني مفكـر وأديب وشاعـر ، أي أنني لست إنسانـاً عاديـاً ، وأن لي طـريقي وهدفي . لقد قيـل إن موت الـولد صـدع في الكبد لا ينجبـر آخر الأبـد ، وهذا صحيح . فمن يصبر على موت ولده يعش ولكن بقلب جريح ، جريح جرحاً لا يندمل آخر الأبد .

المهم في حديثنا أن فـاجعة مـوت الولـد لا تعدلهـا فاجعـة ، وردود فعلها معروفة ، ومع هذا فما صدر عن الشيـخ من رد فعل هـو الذي أدهشني وحيـرني وجعلني أنظر إلى الشيخ على أنه لغُز غامض وظاهرة محيرة و (سوبـرمان) تجـاوز حدود البشر .

وإليكم للتوضيح ما كان من أمر الشيخ لمـا مات ولـده . من عادة الشيـخ أن يستيقظ قبيـل الفجر ليتـوضـأ ويـذهب إلى الجـامـع ، ومن عـادتـه أيضـاً أن يصطحب ولده معه . ولقد شق الشيخ باب غرفة ولده كالعادة وناداه فلما لم يجب دخل الغرفة حتى وصل السرير الذي ينام عليه ولده فهزه برفق ، فلم تصدر عن الابن حـركة ، وهنـا مال الشيـخ على ولـده وتأمـل وجهـه ، وشـك في الأمـر ، فمضى وأضاء النور ، ولما عاد وجد ولده قد فارق الحياة .

هـذا ما حـدث . . وبعـد فـما الـذي كـان متـوقعـاً من الأب أن يفعله ؟ فليحاول القارىء أن يحزر . . ويخمن .

وما حدث هو أن الشيخ انسحب من غـرفة ولـده ، ومضى فتوضـأ ، ثم غادر منزله إلى الجامع ، فصلى الفجر ، وذكر مع الذاكرين ، ثم عاد فدخل على زوجه وأيقظها وبدأ يعدها لتلقي النبأ . لقد انتظر حتى توضـأت وصلت الصبح بـدورها ، ثم جلس إلى جـانبها ، وهي لا تـزال ميممة وجههـا القبلة ، وجعل يحدثها عن صاحب أمانة استودعها أحداً من أصحابه ، ثم عـاد يطلب أمـانته ، فـما يكون مـوقف من استودع الأمـانة ؟ قـالت الزوجـة : إن عليه أن يـردهـا . وانتقـل الشيخ من ثم إلى الحـديث عن الأمانـة التي استودعهـا الله الوالـدين ألا وهي الأبناء ، فهل من حق الوالدين أن يعترضوا على الله إن هو أراد أن يستـرد

أمانته ؟ وهنا نظرت الزوجة إلى زوجها في ريب وسألته : ولكن لم هذا الحديث عن الأمانة الآن ؟ فقال الشيخ : لقد كان موضوع الدرس الذي سمعناه في الجامع قبل قليل . ولم يقنع هذا الجواب الزوجة فقالت : ويحيى . . أين هو ؟ ألم يرافقك إلى الجامع ؟ قال : لا ، لقد وجدته متعباً قليلاً فتركته . وهنا همت الزوجة بالمضي لترى ولدها المتعب فإذا بالشيخ يمسك بيد زوجه ويضغطها قائلاً لها بصوت قوي : أعود فأذكرك بأن الله هو صاحب الأمانة ، وأنه استودعنا ولدنا ، وأنه حر في أن يدعه عندنا أو أن يسترده . ودارت عينا الزوجة من الخوف وهمت بالصراخ فتابع الشيخ بقوة : لسنا خيراً من رسول الله الذي توفي أولاده الذكور جميعاً وهم صغار ، والذي دفن بناته الواحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وتزوجن وصرن أمهات بل إنه هو الذي أسّر لابنته فاطمة التي ظلت على قيد الحياة في حياته أسرّ إليها ، وهو في النزع ، أنها أول أهله لحوقاً به بعد وفاته . ومع هذا فالأم تبقى أماً فصاحت : ولدي ولدي ، فصاح الشيخ بدوره : والله لئن سمع أحد صوتك فلا أنا زوجك ولا أنت زوجتي .

سمعت هذه القصة العجيبة من أهل الحي الذين تناقلونها فيما بينهم نقلاً عن بقال الحي الذي كان له بالشيخ صلة قوية . وتعجبت . . أخذني العجب طوال اليوم وأنا أفكر في أمر الشيخ . فهل هذا تصرف بشر ؟ وهل الموقف الذي عاشه يمكن أن يقفه بشر ؟ وما الدرجة من الإيمان التي بلغها الشيخ حتى صدر عنه هذا التصرف ؟ أليس للشيخ قلب ؟ وهل يعقل ألا يكون للشيخ قلب ؟ وكيف تحمل قلب الشيخ هذه الفاجعة وكيف وقف منها هذا الموقف ؟ من يصدق أن أباً يكتشف أن ولده توفي في الليل فيغلق عليه باب غرفته ويذهب إلى الجامع ليصلي صلاة الفجر كالعادة ؟ وكيف استطاع الشيخ أن يصلي ؟ بل كيف ترك ولده الميت مع أمه في البيت وحدهما ؟ ولو أن الأم استيقظت واكتشفت وحدها أن ولدها توفي فما الذي كان يحدث ؟

أسئلة ظلت تلح علي طوال اليوم حتى آذنت الشمس بالمغيب وأذن المؤذن لصلاة المغرب ، فانتظرت قليلاً ، ثم مضيت إلى بيت الشيخ لأقدم التعازي مع المعزين .

دخلت فنهض واقفاً مع عدد من أقربائه بادي الإعياء ، ثم عاود الجلوس في حين جلست أنا غير بعيد عنه ، أصغي إلى قارىء القرآن الذي تصدر المكان ، يتلو بصوت جهوري قوي يحسبه السامع صادراً عن مكبر صوت .

كانت عيناي على الشيخ ، وقد بدا في جلسته مستكيناً على نحو ملفت للنظر ، ظهره منطو ، ورأسه مائلة على كتفه ، ووجهه قد شف وشحب حتى لتحسب البشرة من شمع . ظللت أتأمل هذا الوجه البريء براءة عجيبة ، براءة طفلية ، والذي كان يحمل أعباء السنين الطويلة في الوقت نفسه ، فداخلني شعور غامض مشوب بالحيرة ، وقد بدا هذا الوجه غريباً لا يشبه وجوه الناس من قريب أو بعيد . وكأن صاحبه قد ولج فلكاً غير الفلك الذي تدور فيه الأرض ، ورأى ما لم تره بعد عين .

كان الشيخ يتحرك بين الحين والحين ، يهزه ما يسمع من الآيات وهي تتلى ، فيرفع رأسه قليلاً ، وينظر في اتجاه المجهول ، وإذا عيناه الصغيرتان تومضان من بين الأجفان العاطلة عن الأهداب مطلقة شيئاً أشبه بالأشعة ، وإذا الوجه الشمعي ينفعل فجأة فإذا به يتحرك ، تتوتر عضلاته المسترخية ، ويظهر عليه تعبير عجيب لا سبيل إلى وصفه .

ذكرني وجه الشيخ بلوحات أل غريكو لوجوه القديسين . تلك الوجوه التي رسمها بقلم شاحب رسماً شفافاً حتى بدت الوجوه وجوه أطياف وأشباح . لقد بلغ الفنان هذه الدرجة من الشفافية بعد حياة ملآى بالأحداث ناضحة بالأحزان . لقد وصل فلكاً بعيداً رفعه إليه حزنه وحده . ترى هل كانت أحزان الشيخ ، ومنها حزنه الأخير الفاجع ، سبباً في أن يصير وجهه صورة لتلك الشفافية الملائكية ؟

كانت عيناي عليه لا تفارقانه ، محاولاً أن أتبين ما يفكر فيه . وبم يمكن أن يفكر والد فقد وحيده في فجر هذا اليوم نفسه ؟ إن ذكريات الأعزة لا تلح علينا إلا بعد رحيلهم . ولو أن الراحلين لم يرحلوا لما هاجت في الباقين الانفعالات والذكريات . فالعزيز الراحل يغدو بعد رحيله أسطورة ، أغنية جميلة

وموسيقى صادرة عن أفلاك اللانهاية . إن كل الهنات والأخطاء والأغلاط والتناقضات الموجودة في كل إنسان كل هذا يصبح نسياً منسياً ، ولا يبقى من الراحل إلا كمالاته . وليت أن الإنسان قبل أن يصير إلى ربه يكون له الجمال الذي تكتسبه ذكراه بعد رحيله ، ولو أن هذا تحقق لانقلب الإنسان أسطورة وأغنية بحق خلال حياته .

الشيخ مستغرق إذن في عالم الذكريات التي ما زالت دافئة ، دافئة كأديم دافىء . لقد ذهب الراحل مخلفاً وراءه قلباً جريحاً وعيناً دامعة وذكرى محفورة بميسم من نار . آه ، إنه الحزن .

ووجدتني منجذباً إلى الشيخ من حيث لا أدري ، تدفعني إليه موجة من الإشفاق ، وأنا أتصوره في وضع من فقدوا الأحبة وما هم فيه من وحشة وخاصة في الأيام الأولى . فالحزن يبلى كما يبلى الثوب ، هكذا جاء في أمثال العرب ، وهذا صحيح ، ولكن إلى أن يبلى الحزن فإنه يعض كما تعض الذئاب ويمزع اللحم عن العظم كما تفعل الأنياب .

كنت أرى الشيخ غادياً رائحاً ، قاصداً الجامع القريب في أوقات الصلاة يستعين بعكازه مساعداً رجله اليسرى المصابة بالشلل ، فيثير منظره فيّ مشاعر تؤلمني . صرت أصلي خلفه في الجامع صلاة الفجر ، مصغياً إلى صوته الحنون وهو يتلو الآيات القصار . كان له صوت دافىء خفيض ضعيف لكن له حلاوة وتأثيراً ، ينفذ إلى القلب فيحركه ويهزه ويمتلكه . كنت أتصور لو أن الشيخ استغل جمال صوته في عالم الغناء لكان إذن مطرباً ذا باع في هذا العالم . . فإذا قضيت الصلاة جلس وجلس المريدون حوله في نصف دائرة يصغون إليه وهو يفسر آيات من سورة ، أو يشرح حالاً من الأحوال الصوفية أو مقاماً من مقاماتها . . فإذا غادر الجامع رافقته إلى منزله القريب من منزلي وبي من السكينة والطمأنينة ما يبدو على وجه الشيخ المعبر العجيب .

ونشأت ألفة بيني وبين الشيخ لم تلبث أن تحولت إلى مودة . صار يدعوني لزيارته في منزله فكان يستقبلني في غرفته التي كانت أشبه بمكتبة . . خزائن

تغـطي الجـدران مثقلة بمجلدات من التـراث ، مجلدات في الفقـه والتفسـير والتصوف والفلسفة أيضاً .

الشيخ كان يقرأ الفلسفة إذن ؟
وعجبت لهذا .

كنت أدخـل عليـه ، فينـظر إلي من فـوق نـظارتيـه ، وهـو جـالس عـلى الأريكة ، ويهم بالنهوض ، فأسـرع إليه وأميل عليه محـاولاً تقبيل يـده وما كـان الشيخ يعطيني يده . كنت ألمس أناملها لمساً فـأرفع أصـابعي إلى شفتي اعتزازاً ، ثم أتخذ مجلسي على كـرسي قريب . . أجلس وأنـا أشعر ذلـك الشعور العجيب بالسكينة والطمأنينة . لكأن الشيخ كان يشع تلك السكينة والـطمأنينـة . وما أن أتـأمل محياه وأنظر إلى عينيـه حتى أدخل عـالماً هـو أشبه مـا يكون بـالجامـع . . أجل، كنت مولعاً بالذهاب إلى الجـامع في السحـر . . أدخل الصحن الفسيـح، وأتوضأ من البركة والماء يساقط من جوانبها شلالات صغيرة ذات خرير ناعم . . وفوق البركة قبة من الخشب المحفور المزين برسوم هنـدسية . . وكثيـراً ما كنت أجلس على طرف الممر المفضي إلى داخل الجـامع أتـأمل انفجار الفجر في القبـة السماوية ، والحمائم الأليفة تطير وتقفز وتحط على حفاف البـركة هـادلة هـديلها الجميل .

كنت أطيل الجلوس في ذلك العـالم الخاص ، الجـواني إن أمكن القول . . أقـول (جـواني) لأن عـالم الجـامـع كـان يفصلني عن عـالمي العـادي ، عـالمي الخارجي ، فكأنني انتقلت بالفعل من عالم إلى عالم ، ومن أرض إلى سماء ، ومن صحراء إلى جنة عالية قطوفها دانية .

كنت أقصد الجامع لحاجة في نفس يعقوب قضاها كما جاء في القرآن . فأنا مـا كنت مصلياً مـواظباً من مصـلي الجوامـع ، وإن كان قلبي معلقـاً بها . كنت أقصد الجامع كلما ضاق صدري وضاقت عـلي الأرض بما رحبت ، فـأتوجـه إليه ناشداً ما عجز العالم البراني كله عن تقديمه لي . ولأن الجـامع كـان يشفيني فلقد كنت حريصاً على الدواء وضنيناً بتعاطيه في الوقت نفسـه . . أخاف أن أتعـاطى

هذا الدواء كثيراً لئلا يفقد مفعوله ، وكذلك كان موقفي من الطبيعة وآياتها .

وعندما زرت الشيخ في منزله اكتشفت أنني عثرت على جامع آخر ، على كنز جديد . فالمشاعر العلوية المنبثقة فيّ وأنا في صحن الجامع قد جعلت تتفجّر فيّ وأنا في غرفة الشيخ في بيته . وأيقنت أن للشيخ سراً ، وعزمت من ثم على أن أقتحم اللجة لاستجلاء السر العظيم .

obeikandl.com